

## الفنون التطبيقية.. تميّز وخلود



الفنون التطبيقية: وهي الفنون التي دخلت كعملية تجميلية لحوائج ترتبط بحياة الإنسان اليومية، مما يستعمله في شتى أموره، ومن لباس وفرش وأدوات طعام وشراب.. وصناديق لحفظ الحاجات.. وهذا النوع من الفنون يعد في مقدمة الفنون، إذ يتدخل في تجميل كل ما له صلة بالإنسان من متاع ووسائل، كما أنّ صلته بهذا النوع من الأشياء يؤمن له انتشاراً واسعاً بين الناس، واتصالاً وثيقاً بدنيا الناس، فلا يظل قاصراً على طبقة معينة أو فئة محدودة. ويعد هذا الاتجاه في الفن عملية تطبيقية لنظرة الإسلام الجمالية الشاملة. التي جاء بها المنهج الإسلامي ودعا إليها. وقد أوحد الإسلام لدى كلّ عامل - في أيّ مجال - الحافر الذي يجعله مشوقاً إلى الوصول إلى الجمال[1]. وقد استطاع المسلمون في وقت مبكر أن يقطعوا أشواطاً واسعة في هذا المضمار وفي كل الاتجاهات. مما جعلهم محل إعجاب وتقدير فقد "بقيت أوروبا أكثر من ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامي كأعجوبة.." [2]. إنّ ما حققه الإسلام منذ قرون، وهو ما جاءت مدرسة "الباوهاوس" تدعو إليه في هذا القرن واعتبرت دعوتها فتحاً عظيماً في ميدان الفن[3]. لقد استطاع الإسلام بمنهجه أن يجعل من كلّ صانع فناناً في صنعته يبذل في تحسينها كلّ مهارته العملية مشفوعة بفكره وإبداعه، وبهذا كان الجمال لغة متداولة يتعامل بها كلّ الناس وليس طبقة واحدة، وأصبح كلّ صانع يشعر بلذة الإبداع الفني كما يشعر بها أي فنان مبدع. ومن هذا الشعور الرفيع كان ذلك العطاء العظيم الذي نتحدث عن بعض جوانبه. الخرف: تعد التحف الخزفية الإسلامية في مقدمة تحف الفن الإسلامي، المتوفرة

بين الأيدي في الوقت الحاضر، فهي كثيرة العدد، متنوعة المواضيع، لا يكاد يخلو منها بلد إسلامي. "والخزف طين مشوي بأشكال مصبوبة، أو مكونة مغطاة بدھان براق أزرق وأخضر، أو بدھان ذي بريق معدني بإضافة أملاح الحديد والأنتيمون إلى ماء" [4]. وقد اهتم الفنان المسلم بهذا النوع من الصناعة، وأثبت براعته ونجاحه فيه إلى مدى بعيد. ويعلل بعضهم هذا النجاح بأزنه راجع إلى أن "الخزف والفالخار قد حققا فكرة الحضارة الإسلامية في جوانب متعددة، فروح الإسلام السمحاء لا تتمشى والتزف واستعمال الخامات الغالية كالذهب والفضة، ولذلك أقبل الفنانون المسلمين والعرب منهم وخاصة على فن الخزف إقبالاً عظيماً، واستطاعوا أن ينتجوا خزفاً على مستوى عال من قيمته الفنية، ولم يكتفوا بذلك، بل وصلوا إلى أن يكون إنتاجهم الخزفي في الأواني والتحف المختلفة يصلح من حيث الفخامة والجمال لأن يكون بدلاً لأواني الذهب والفضة باستعمالهم للبريق المعدني الذي يعتبر صفة خاصة انفرد بها الخزف الإسلامي" [5]. ونحب أن نلتف النظر هنا إلى عامل آخر، وهو عامل "الالتزام" فمن المعروف أن الإسلام حرّم استعمال أواني الذهب والفضة، وكذلك ما طلي بهما، ولذا كان هذا الاتجاه تحقيقاً لهذا المعنى. وقد توسيع صناعة الخزف حتى استطاعت تلبية حاجات الناس في جوانب متعددة من لوازمهم ووسائلهم. فقد صنع البلاط الخزفي على أشكال متنوعة وبألوان متعددة ورسوم رائعة.. لكسوة الجدران، والمحاريب، وصنعت منه الفناجين والصحون والكؤوس والأباريق.. واستخدم الخزافون المسلمين الكتابة بالخط الكوفي بمختلف أشكاله أو النسخي كوسيلة للربط بين العناصر الزخرفية الأخرى أو لملء شريط زخرفي بكلمات ذات صيغة دعائية لصاحب التحفة، أو حكمة عربية أو آية من القرآن الكريم أو حديث من أحاديث الرسول (ص) [6]. وبلغت الدقة والمهارة ذروتها في عمل الرسوم والزخارف، والأمر الذي أثار "إعجاب ودهشة النقادين الفنيين لصناعة الخزف الإسلامي الإتقان الزائد في استغلال تأثير النور والظل ونجاح الخزافين المسلمين في ذلك نجاحاً بزّاً جميع زملائهم من خارج العالم الإسلامي. وكان الخزافون المسلمين هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الخزف. ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق.. ولكنه نضج وأصبح لونه ذهبياً منذ القرن الثالث الهجري" [7]. ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الخزف (قاشان) وإليها تنسب صناعة بلاط القاشاني" [8]. ومن مراكزه الرقة في سوريا، والفسطاط في مصر، ومالقة في الأندلس وسامراء والموصى والرصافة في العراق.. الزجاج: صناعة الزجاج قديمة، ولسوريا ومصر شهرة قديمة في هذه الصناعة وهناك قطع ترجع في تاريخها إلى القرن الثالث الهجري. وقد بلغت هذه الصناعة قمتها في البلدين في القرن السادس الهجري، وكان من مراكز النشاط فيها حلب ودمشق والفسطاط والإسكندرية. وأخذت الزخرفة - ومنها الحفر - مكانها بالنسبة للزجاج، شأنها في ذلك شأن بقية المصنوعات. واستعمل الطلاء بالمينا من حمراء وزرقاء وخضراء.. الزخرفة الخشبية:

كانت مادة الخشب ميداناً لعمليات تجميلية متنوعة، سادت في كثير من الأقطار الإسلامية. وكان الحفر - الذي استعمل بأساليب متعددة - إحدى هذا الوسائل التجميلية، كما استعملت الحشوات للحصول على أشكال هندسية متنوعة في مقدمتها المضللات المنبثقة من أشكال نجمية. وفي كثير من الأحيان كان الخشب يطعم بالعاج وغيره.. إنّ كثرة استعمالات الخشب أتاحت للفنان مجالات واسعة لتطوير فنه وتحسينه، كما أنّ طبيعة الشكل المراد تزيينه ووظيفته التي يراد لها تأديتها كان لهما أكبر الأثر في إبداع ذلك العطاء الفني. وقد استعملت الحشوات في الأبواب والمنابر، واستعمل الحفر والتفرغ في التحف، كما استعمل التطعيم في الصناديق وبعض الأبواب والكراسي.. النسيج والسجاد: النسيج صناعة قديمة، وحاجة عامة، فكان من البدهي أن تكثر مصانعه والعاملون فيه تلبية لتلك الحاجات. ولكن النهضة العمرانية العامة التي استطاع الإسلام أن يبعثها في كلّ أرض وصل إليها نوره، شملت هذا الجانب الحيوي. وخصته بعناية لم يحظ بها غيره، فقد أنشأت بعض الدول المسلمة دوراً خاصاً تشرف عليها الدولة، مهمتها إنتاج الملابس لبيت الخليفة، وقد أطلق على هذه، الدور اسم (دور الطراز) وقد أفرد ابن خلدون في مقدمته فصلاً تحت هذا العنوان بيّن فيه مهمة هذه الدار وقرب المسؤول عنها من الخليفة، كما بيّن أنّ وجودها ارتبط بعهود الرفاهية.. وإذا كانت هذه الدور الخاصة تنتج اللباس الخاص بالخليفة وحاشيته وتنتج الخلع التي يتكرم بها على من يصلهم إحسانه، فإنّ هناك دوراً عاماً يقوم عليها صناع وتجار مهمتها تلبية حاجات الناس عامة. ولا شك أنّ وجود الدور الخاصة قد دفع بهذه الصناعة نحو التقدم في تحسين إنتاجها وإضافة الزخارف والكتابات.. وكانت الدور العامة تحذو حذو الدور الخاصة فتنتج الجديد.. وقد لمعت أسماء بعض المدن في إنتاج أنواع معينة من المنتوجات فكان منها دمشق، التي اشتهرت بصنع نسيج حريري سميك أطلق عليه اسم (الدامسكو) أو (الدمقس) وأشتهرت بغداد والموصل بصنع نسيج حريري ناعم سمي (الموصليين). وتعددت مدن صناعة النسيج بمصر، وفيها كانت تصنع كسوة الكعبة وطرز. وقد بلغت هذه الصناعة في كثير من بلدان العالم الإسلامي مستوى رفيعاً جعلها غاية يسعى إليها ومنية تهفو النفوس إليها. فقد روى ناصر خسرو الرحالة المشهور، أنّ أميراً فارسياً أرسل مندوبيه ومعهم (20.000) عشرون ألف دينار ليحصل على كسوة كاملة من النسيج السلطاني الذي يصنع في تنيس [بمصر]، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، لأنّ هذا النسيج الفاخر كان خاصاً بالخليفة فقط<sup>[9]</sup>. وكان لكلّ بلد أسلوبها في الزخارف التي أدخلتها على نسيجها، ففي إيران انتشرت الزخرفة بالزهور والفروع النباتية، وكذلك في تركيا. كما أدخل الخط كعنصر تزييني في بعض ما أنتجته دمشق ومصر، وغالب هذه الكتابة عبارة عن جمل دعائية مثل: سعادة دائمة. ومن أقدم ما وصل إلينا من النسيج الإسلامي "قطعة من النسيج موجودات المتحف الإسلامي بالقاهرة،

مصنوعة من الكتان، وعليها نص تارخي يقول "بسم الله، بركة من الله لعبد الله الأمين أمير المؤمنين أطال الله بقاه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين" [10]. وأما صناعة السجاد فقد انتشرت في أماكن متعددة من العالم الإسلامي مثل تركيا وسوريا ومصر.. ولكن إيران طلت البلد الذي لا يجارى في هذه الصناعة، التي وصلت إلى ذروتها في القرن العاشر الهجرى. حيث أنتجت أنماطاً لا تضاهيها أنماط أخرى في جمالها وسحرها.. وقد كانت - ولا تزال - كلّ من أصفهان، وتب里ز، وشيراز، وقاشان، وهمدان، أهم المدن في إنتاج هذه الصناعة. فنون أخرى: نستطيع القول بأنّ صنعة الجمال سرت في كلّ جوانب الحياة، صغیرها وكبیرها، تضفي عليها من رونقها وبهائها، فلم تقف عند المجالات السابقة بل انسابت إلى كل ما يقع تحت البصر أو في متناول اليد. وفي مقدمة هذه الأشياء.. الكتاب، الذي كان ميداناً، ليس لفن واحد، بل لفنون. بدأت فنون الكتاب بفن (الخط)، حيث إنّ العناية بالخط في كتابة المصاحف كانت قربة إلى الله تعالى. وتبع ذلك عناية أخرى تجميلية وهي تذهيب وتلوين الفوائل بين السور، وكذلك بين الآيات.. وقد تبعت كتب الأدب المصاحف في هذا الشأن، في تزيين صفحاتها الأولى والأخيرة، وإضافة الرسوم إلى موضوعاتها.

وجاء التجليد كعملية ختامية لإعطاء الكتاب شكله النهائي، حيث يُسعى إلى الجمال والمتانة، وكان الجلد هو المادة المستعملة في التجليد ثمّ استعمل الورق المقوى وغيره.. وأتيح للزينة أن تأخذ مكانها على هذا الجلد، حيث يبذل الفنان قصارى جهده، في إخراجه بالشكل الذي يجذب البصر ويستهوي الإعجاب. وكما كانت كتابة القرآن العامل الأساسي في نشأة فن الخط، فإنّ القرآن كذلك كان الدافع لنشأة فنون الكتاب جميّعاً، إذ بدأت به هذه الفنون تقرباً إلى الله تعالى وتعبيراً عن الحبّ والإيمان.. ثمّ شملت الكتب الأخرى. ومن الفنون التي راجت، صناعة التحف المعدنية، من نحاسية وغيرها، وقد كانت تزين بالحفر عليها.. وقد ازدهرت هذه الصناعة في مصر وسوريا وكذلك الموصل. وهناك صناعة التحف العاجية أو التطعيم بالعاج.. بعد هذه الجولة القصيرة مع الفنون التطبيقية، نقول: استطاع الفنان المسلم الوصول بالفنون التطبيقية إلى المستوى الذي بلغ فيه الغاية، حتى أصبحت الزخارف في الصناعة جزءاً منها، وكأنها داخلة في بنيتها، وما ذاك إلا نتيجة للدقة الفائقية التي توصل إليها هذا الفنان. وندع الكلام عن ذلك لـ (إي، أج، كريستس): "اتخذ الفن الإسلامي وهو في سبيل تقدمه.. شكلاً متميزاً المعالم، وطابعاً خاصاً واضحاً، حتى ليتمكن عده طبيعياً، يمرّ النظر به من الكرام غير متشكّك، كان كلّ شيء - سواء أعد للاستعمال الاعتيادي، أو عمل لمناسبة خاصة - يكسى الزخارف النابضة بالحياة بإسراف عظيم الدقة، وبأشكال تبدو وكأنها طبيعية، كالرسوم التي تخلعها الطبيعة على الأحياء أكثر مما تبدو زخارف اصطناعية.. وكانت عناصرها المكونة مصوّفة بدرجة من الدقة والنظام حتى ليكاد

يستولي علينا الوهم بأنّ "تحت هذا المنظر المتناسق حيوية دافقة لا يدرك كنهها. هذا الإسراف الزخرفي لم يكن تعلة لملء الفراغ، أو إخفاء أشكال ظاهرة المدلول، لكنه جزء رئيسي من أجزاء الصناعة الدقيقة التي لا يمكن أن نعد العمل كاملاً بدونها، فاطراد النسق الإيقاعي في الزخرف للعين الشرقية، إنما هو ضرورة إيناسية، كضرورة اللحن للأذن الغربية. إنّ "أزهد دراسة للفن الإسلامي ستبيّن بأنّ" الأشكال الزخرفية يجب أن توضع في صُف أعلى الفنون الصغيرة التي تفتقت عنها العبرية الإسلامية" [11]. الهوا مش:

- [1] - انظر في هذا الموضوع كتاب "التربيـة الجمالـية"، للمؤلف. [2] - "تراث الإسلام" بإشراف "توماس ارنولد" ترجمة جرجيس فتح ١٠/٤٧٨. [3] - قال الدكتور نعيم عطيـة "ولهذا كان فصل مدرسة مثل الباوهاوس في دفع الفن إلى الأمـام فضلاً كـبيراً وجديراً بكل احـترام واحـتفـاء، فقد سـعت إلى تنمية الروابط بين الفنـون الجـميلـة والفنـون النـفعـية، وـقضـت على الفـكرة القـديـمة البـائـدة بـأنـ هـمـ الفنانـ الأوـلـ هو الجـمالـ لـذـاتهـ. وجـعـلت سـعيـ الفنانـ الأوـلـ هو أنـ يـزوـدـ الحـيـاةـ الـيـوـمـيـةـ بـالـأـشـيـاءـ الـجـمـيلـةـ، فالـكـرـسيـ الـذـيـ تـرـاعـىـ فـيـ تـصـمـيمـهـ الـقـيمـ الـجمـالـيةـ هو عـمـلـ فـنـيـ لـيـقلـ أـهـمـيـةـ عـنـ اللـوـحةـ، وـكـانـتـ الخـطـوةـ التـالـيـةـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ، تـطـوـيـعـ الـقـيمـ الـجمـالـيةـ لـلـإـنـتـاجـ الـيـوـمـيـ". عن كتاب (الفن الحديث محاولة للفهم)، ص82، سلسلة اقرأ، العدد 473. [4] - جـمالـيـةـ الفـنـ العـرـبـيـ، دـ. عـفـيفـ بـهـنـسـيـ، صـ197ـ. [5] - الفـنـ إـسـلامـيـ، أـبـوـ صـالـحـ الأـلـفـيـ، صـ260ـ. [6] - تـارـيخـ الفـنـ عـنـ الـعـرـبـ وـالـمـسـلـمـيـنـ، أـنـورـ الرـفـاعـيـ، صـ156ـ-157ـ. [7] - تـارـيخـ الفـنـ عـنـ الـعـرـبـ وـالـمـسـلـمـيـنـ، أـنـورـ الرـفـاعـيـ، صـ157ـ-156ـ. [8] - نفسـ المـصـدرـ. [9] - الفـنـ إـسـلامـيـ، أـبـوـ صـالـحـ الأـلـفـيـ، صـ291ـ. [10] - مجلـةـ الـفـيـصـلـ، العـدـدـ 39ـ، صـ117ـ.
- [11] - كتاب (تراث الإسلام) بإشراف (توماس ارنولد)، ترجمة جرجيس فتح ١٠. المطبعة العصرية بالموصل . 443، ج 2، 1954

المصدر: كتاب الفن الإسلامي.. التزام وابتداع